الفصل الثالث

العقلانية الإسلامية والعلم

جاء في تقديم الشيخ رشيد رضا لكتاب أستاذه محمد عبده: «الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية» ما يلي: «جاء الإسلام (...) فلم يمر قرن واحد حتى جدّد للعالم كله دينا قيما، وعلما محكما، ومدنية سعيدة وسياسة رشيدة (...) ونفخ في الإنسان روحاً جديداً أعطاه من جراثيم الحياة ما لا يقبل الفناء، ما دامت الأرض والسماء»[1].

ولما تخلى هذا الإنسان المسلم عن كل أصول الإصلاح التي يدعوه إليها دينه في الوقت الذي أخذ ببعضها الغرب صار الفارق الحضاري بين المسلم ورجل الغرب على غير ما كان عليه بالأمس تقريبا وانقلبت الأوضاع ليتصدر الركب الحضاري من كان في المؤخرة ويتزحزح إلى المؤخرة من كان يتصدره.

لقد قطع الغرب أشواطا في العلم والمعرفة. ومع ما حقق من تقدّم تكنولوجي كبير إلا أنه لم يربح المعركة مع الإنسان إلا في بعدها المادي وذلك لأنه اعتمد فلسفة عقلانية اقتصر مجال بحثها تقريبا على عالم الفيزيقا، وقد كان لتلك الوجهة يومئذ ما يبررها.

من هنا كان جديراً بنا أن نتساءل نحن المسلمين عن الخاصية التي تميّز فلسفتنا العقلانية في علاقتها بعالم الفيزيقا عن غيرها من الفلسفات: هل هي مطالبة بالخوض في عالم المادة واكتشاف نواميس هذا الكون الهائل واستغلالها في تسخير

(1) محمد عبده، الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، تقديم وتعليق الشيخ رشيد رضا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1958، ص5.

الكون لخدمة الإنسان، وتكون قد فعلت بذلك مثلما فعلت العقلانية في الغرب؟ أم أنها مطالبة – إلى جانب هذه الغاية المادية – بتحقيق غاية أخرى هي أكثر سموا؟ أي، بعبارة أخرى، هل العقلانية في الفكر الإسلامي مطالبة بمجرد استيعاب العلم وتسخير كل ما في الكون للإنسان؟ أم أنها مطالبة بتجاوز هذا العلم وهذا التسخير إلى غاية أخرى أكثر سموا وإنسانية؟.

لقد سبق لنا في فصول سابقة أن بيّنا كيف أن القرآن يدعو الإنسان إلى تحكيم عقله في التماس الحق واتباعه، بل ذهب القرآن إلى أبعد من ذلك حيث ذم أولئك الذين يعطلون عقولهم وحواسهم ووصفهم بالبهائم ومن هم أضل سبيلاً، فقال: ﴿**لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُون**﴾[1].

ومن هنا كان الإقرار بوجود الخالق وإنزاله للكتب وإرساله للرسل مهمة منوطة بالعقل الصريح وحده. ثم وجد في كليات الشريعة عين كلياته فتقولب العقل الصريح بالنقل الصحيح فكان ما أسميناه بالعقلانية الإسلامية. وفي ضوء هذا التشكيل ستتحدد نوعية النظرة العقلانية للمسلم إلى العلم واكتشاف أسرار الكون وقوانينه واستثمارها في خدمة الإنسانية على الصعيد المادي أو على الصعيد الروحي.

وإذا تقرّر هذا جاز لنا القول إن العقلانية الإسلامية هي عقلانية مؤمنة، أسس لها القرآن نفسه وذلك بدعوته العقل إلى النظر في الكون والاعتبار، ومن هذا فهي عقلانية تقوم على ثنائية الفكرة والواقع أو العقل والتجربة، ولنا في آي القرآن الكثير من الشواهد.

(1) القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآية 179.

ولهذا لاحظ الباحثون أيضاً[1] أنه إذا كان القرآن قد دعا إلى تحرير العقل، والاعتداد به، فإنه لم يكتف بذلك، وإنما مضى نحو تأسيس نظرة عقلانية أو منهجية للعالم المحيط بالإنسان، لتحقيق هدفين: أولهما تكوين معرفة صحيحة عن عالم المادة والحياة، وثانيها تكوين عقيدة مرتكزة على هذه المعرفة.

ومن أجل تكوين معرفة صحيحة عن عالم المادة والحياة نجد القرآن يوجه العقل نحو منهج المعرفة الإنسانية وموضوعاتها:

أما عن موضوعات المعرفة الممكنة فنذكر أن من أبرزها مظاهر الطبيعة والنفس والاجتماع الإنساني أي موضوعات العلوم المادية والإنسانية بصفة عامة والتي تسمح للإنسان من أن يكشف عن طريقها قوانين المادة الجامدة والحية وأسرار الحياة.

فالمتتبع لآي القرآن يجد الكثير منها وهي تتحدث عن «الخلق» توجه العقل إلى النظر في الطبيعة عامة وإلى «كيفية» التكوين الطبيعي للظاهرة خاصة «وكيفية» حدوثها وإلى التغيرات المتعاقبة التي تطرأ عليها واختلاف بعضها عن بعض، وهذه التوجيهات كلها هي من خصائص الملاحظة العلمية، من ذلك قوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾[2] وقوله تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ. وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا**

(1) أنظر: الكتاني (محمد)، جدل العقل والنقل في مناهج التفكير الإسلامي في الفكر القديم، دار الثقافة، ط1، الدار البيضاء، 1412هـ – 1922م، ص383.

(2) القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية 164.

وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ. تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾[1]. وقوله تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً/..... ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً﴾**[2]، وقوله تعالى: **﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ. وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾**[3] وغيرها كثير.

ومع توجيه القرآن العقل الإنساني إلى ما خلق الله من آيات كونية فإنه يؤكد على أن هذا الخلق لم يكن عبثا وإنما جاء من أجل غاية، ويتم في نظام محكم لا تفاوت في الخلق ولا شيء يحدث بغير حق والكل تسخير من الله للإنسان، ولا يبلغ التسخير غايته إلا في إطار اكتشاف الأسباب والأخذ بها، وهذا عين العلم. ومن الآيات القرآنية الدالة على أن الكون يسير وفق سنن ونواميس محكمة قوله تعالى: **﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ. لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾**[4].

وإذا فحصنا القرآن أكثر وجدناه يلفت نظرنا إلى أن الكون كله على تقدير دقيق، وإذا نظرنا إلى ما حققه العلم من كشوفات وأسرار كونية أدركنا هذه الحقيقة وهي أن الكون كله وحدة متكاملة متحركة داخل نظام محكم مطرد وفق سنن ثابتة لا تتغير، وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله: **﴿.. مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ**

(1) القرآن الكريم، سورة ق، الآيات 6 ،7 ،8.

(2) القرآن الكريم، سورة الفرقان، الآيتان 45، 46.

(3) القرآن الكريم، سورة الغاشية، الآيات: 17، 18، 19، 20.

(4) القرآن الكريم، سورة يس، الآيات: 38، 39، 40.

يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[1] وبصر العلم (الملاحظة العلمية) أكثر إدراكا لهذه الحقيقة من بصر الملاحظة العابرة، وهو المقصود من الآية، إذ الملاحظة العابرة قد لا يترتب عليها شيء، وفي هذا من غير شك إقرار بأهمية العلم وضرورته لكشف الحقائق التي لم تكن لتوجد عبثاً.

وهذا النظام المحكم المطرد هو الذي يطلق عليه علماء الطبيعة المحدثون اسم «مبدأ الحتمية في الطبيعة» وهو أساس التقدم العلمي في العصر الراهن. والواقع أن الفرق يكمن في مصدر هذه الحتمية: أهو طبيعي كما يقول الطبيعيون وأشباههم أم إلهي؟ وفي هذا يقول ابن باديس (1889 – 1930): «والقدر (...) من مقتضى كمال العلم، والإرادة من صفات ربنا. فالقدر في دائرة الاعتقاد والشرع في دائرة العمل وعلينا أن نعمل بشرع الله ونتوسل إلى المسببات المشروعة بأسبابها (كتوسلنا للنسل بالزواج وللزرع بالحرث والعلم بالتعلم والبحث... مع الإيمان بالقدر) ونؤمن بسبق قدر الله فلا يكون إلا ما قدره منها...»[2]، فالقدر بهذا عند العقل المسلم هو نظام التوحيد المحكم القائم على مبدأ السببية الذي لا يتبدل وهو عند العقل الطبيعي نظام الطبيعة الحتمي الذاتي، ومعرفة قوانين الطبيعة في كلا الحالتين منتج للعلم الذي به يتم تسخير كل ما في الكون لخدمة الإنسانية، وكل اكتشاف هو خطوة نحو: «كمال العلم».

ولقد سجل الفيلسوف محمد اقبال (1873 – 1938) نقاطا هامة وهو يحدثنا عن طبيعة العالم الذي نعيش فيه كما صوره القرآن[3]، من ذلك أنه أدرك

---

(1) القرآن الكريم، سورة الملك، الآيتان 3 ،4.

(2) ابن باديس (عبد الحميد)، العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، رواية وتعليق محمد الصالح رمضان، مطابع الكيلاني، القاهرة، بدون تاريخ، ص96.

(3) أنظر: محمد إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ترجمة عباس محمود، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط2، القاهرة، 1968، ص16 وما بعدها.

أن أول ما يقرره القرآن أن العالم لم يخلق عبثاً – كما أشرنا – لمجرد الخلق لا غير، قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ. مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾[1].

ثم يلفت انتباهنا هذا الفيلسوف إلى حقيقة أخرى ويطلب منا أن نضعها موضع الاعتبار وهي قوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآياتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ.الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً**... ﴾[2].

وأكثر من ذلك أنه يشعرنا بكل قوّة أن هذا العالم مرتب على نحو يجعله قابلا للزيادة والامتداد مشيرا إلى قوله تعالى: ﴿**يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ**﴾[3]. فالعالم بهذا هو كتلة وليس إنتاجاً مكتملاً ومنه فهو قابل للتغير والتبدل: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[4].

ليخلص إلى نتيجة هامة كان على الإنسان وخاصة المسلم منه أن يتدبرها ويعمل بها وهي أن هذا الامتداد العظيم في الزمان والمكان أي تقلب الليل والنهار وسباحة الكل في الفلك... يحمل في ثناياه الأمل في أن الإنسان الذي يجب عليه أن يتفكّر في آيات الله ستتم له الغلبة على الطبيعة وذلك بالكشف عن الوسائل التي تجعل هذه الغلبة حقيقة واقعة. وفي هذا تأسيس وتطوير للعقلانية دائم في حياة الإنسان المسلم.

---

(1) القرآن الكريم، سورة الدخان، الآيتان 38 ،39.

(2) القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآيتان، 190، 191.

(3) القرآن الكريم، سورة فاطر، الآية 1.

(4) القرآن الكريم، سورة العنكبوت، الآية 20.

والذي نبنيه على هذا أن العقل المسلم مطالب دوما بالنظر القائم على الملاحظة العلمية في آيات الله، النظر الذي سيمكّنه من الكشف عن الوسائل التي بها سيجعل تسخير الطبيعة له حقيقة واقعية، وهذا الذي أشارت إليه الآية الكريمة: **﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾**[1]، وقوله تعالى: **﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾**[2].

فالعقلانية الإسلامية إذن هي عقلانية مطالبة بالنظر الواقعي العلمي الذي يمكّنها ابتداء من استيعاب العلم الذي هو السبيل الوحيد المفضي إلى السيطرة على عالم الشهادة، وبذلك تكون المعرفة العلمية في المنظور الإسلامي منشأها الإدراك الحسي الذي يكمّله الإدراك العقلي لأن القرآن عندما يطالبنا بالوقوف على هذا العالم والقوانين التي تحكمه إنما يطالبنا بأن ننظر ونستدل بحكم ما هو مغروز في فطرة العقل من تميّز ومعارف ضرورية أولية.

وهذا الذي أكده الفيلسوف اقبال واستخلصه من قوله تعالى: **﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾**[3] أن الإنسان موهوب بالملكة التي تجعل له القدرة على وضع أسماء الأشياء، أي أنه يكوّن التصورات لها والذي يعني إدراكها وفهمها. فالمعرفة الإنسانية إذن معرفة قائمة

(1) القرآن الكريم، سورة لقمان، الآية 20.

(2) القرآن الكريم، سورة النحل، الآية 12.

(3) القرآن الكريم، سورة البقرة، الآيات: 31، 32، 33.

على الإدراكية، وأتى بجملة من الآيات القرآنية الأخرى التي تؤكد ذلك، لينتهي إلى نقطتين هامتين هما من خصائص العقلانية العلمية الإسلامية:

1- أن الاتجاه العام للقرآن الكريم هو اتجاه تجريبي مما كوّن في أتباعه شعوراً بتقدير الواقع وجعل منهم آخر الأمر واضعي أساس العلم الحديث.

2- أن أول ما يستهدفه القرآن من هذه الملاحظة التأملية هو أنها تبعث في نفس الإنسان الشعور بمن تعدّ هذه الطبيعة آية عليه[1].

وفكرة التأسيس للمنهج التجريبي قد وقف عليها الكثير من الباحثين[2] اليوم وبيّنوا أن الأسس الأولى للمنهج التجريبي إنما وضعها المفكرون المسلمون الأصلاء الأوائل وخاصة منهم علماء الأصول. والقرآن هو الذي كان وراء لفت نظر العقل المسلم إلى مثل هذا المنهج الواقعي، وفي هذا يقول أحد هؤلاء الباحثين: «وأهم جانب يمليه القرآن على العقل إملاء لا هوادة فيه هو تلقينه منهج اكتشاف الحقيقة (...) واكتشاف الحقيقة في القرآن مرتب على حقيقة أولية هي اعتبار الحقيقة ملابسة للواقع. فالقرآن يدعو بصريح العبارة إلى استقراء الوقائع والأحداث وتتبع الحقائق الجزئية باعتبارها دالة على الكل سواء في الطبيعة المادية أو في النفس أو في الاجتماع (التاريخ)» [3].

---

(1) أنظر: محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، ص21.

(2) أنظر مثلاً: النشار (علي سامي)، مناهج البحث عند مفكري الإسلام، دار النهضة العربية، ط3، بيروت، 1984، وكذلك: محمود يعقوبي، مسالك العلة وقواعد الاستقراء عند الأصوليين وجون ستيوارت مل، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، وآخرين.

(3) الكتاني (محمد)، جدل العقل والنقل في مناهج التفكير الإسلامي في الفكر القديم، ص387.

ولهذا فالمسلم، في علوم الاجتماع، على سبيل المثال، لم يعد من حقه انتظار المعجزات وخوارق العادات ولا أن يعوّل بعد الأنبياء – ومحمد ﷺ هو آخر الأنبياء– في السعي وراء الحق والدعوة إليه على غير دليل، خاصة وأن القرآن يدعو الإنسان – لتقويم الأنفس وإصلاح أعمالها في معاشها ومعادها – إلى أن يعتبر بسنن الاجتماع التي كان قد أوجدها الله في صورة لا تتبدل ولا تتحول، فأقرّ ذلك تعالى بقوله: ﴿**قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾[1] وبقوله تعالى: ﴿**سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً**﴾[2]، وبقوله تعالى: ﴿**فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلا سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً. أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**... ﴾[3] إلى آخر الآية.

وقد وقف محمد عبده (1266 – 1363هـ) عند هذه الآيات ليقول: «في هذا يصرح الكتاب أن لله في الأمم والأكوان سننا لا تتبدل. والسنن الطرائق الثابتة التي تجري عليها الشؤون وعلى حسبها تكون الآثار، وهي التي تسمّى شرائع أو نواميس، ويعبر عنها قوم بالقوانين (...) والذي ينادي به الكتاب أن نظام الجمعية البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغيّر ولا يتبدل، وعلى من يطلب السعادة في هذا الاجتماع أن ينظر في أصول هذا النظام حتى يردّ إليها أعماله ويبني عليها سيرته (...) فمهما بحث الناظر وفكّر، وكشف وقرّر، أتى لنا بأحكام تلك السنن؛ فهو يجري مع طبيعة الدين، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه، ولا تنفر منه، فلم لا يعظم تسامحها معه؟»[4].

---

(1) القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية 137.

(2) القرآن الكريم، سورة الإسراء، الآية 77.

(3) القرآن الكريم، سورة فاطر، الآية 43- 44.

(4) محمد عبده، الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، ص47- 48.

وفي هذا يكشف لنا محمد عبده على أن ما يصل إليه العقل إذا ما اتبع السنن التي لا تتبدل في شتى العلوم فإن النتائج المحصل عليها لا تعدو أن تكون مسايرة لطبيعة الكتاب ومن هذا فالعقلانية المماثلة أو التي تطابق كلياتها كليات الكتاب لا يمكنها أن تعادي العلم بل تدعو إليه بإلحاح وتوجهه. فالدين الإسلامي، كما يذكر محمد عبده، هو الذي انطلق بالعقل في سعة العلم ليقف به على أثر من آثار الله أو يكشف به سرا من أسراره في خليقته، أو يستنبط حكما من أحكام شريعته فكانت بذلك جميع الفنون مسارح للعقول، ولما وقف الدين وقعد طلاب اليقين وقف العلم وسكنت ريحه تدريجياً[1].

فإذا تبيّن لنا أن الدين الإسلامي متسامح إلى أبعد الحدود – كما أثبت ذلك مثلا الإمام محمد عبده في كتابه «الإسلام والنصرانية مع العلم والمدينة» – مع جميع أصناف العلوم النافعة للإنسانية بل ويلح في الدعوة إليها، ومجّد العقل الذي به يكشف الإنسان هذه العلوم ويستوعبها فإنه تبيّن لنا أن العقلانية في الفكر الإسلامي الأصيل هي عقلانية ليست معادية للعلم بل هي المؤسسة له والداعية إلى استيعاب شتى أصنافه؛ وهذا الذي تفعله العقلانية في الغرب اليوم؛ وعند ذاك نتساءل: إذا كانت العقلانية في الفكر الإسلامي تهدف إلى عين ما تهدف إليه العقلانية في الفكر الغربي أي الدعوة إلى العلم، فلماذا إذن التمييز والتحفظ؟!

لقد سبق وأن أشرنا أن العقلانية العلمية الإسلامية تهدف إلى غايتين أساسيتين: الأولى: هي غاية قريبة وهي تكوين معرفة صحيحة عن عالم الطبيعة والحياة وذلك باكتشاف قوانينها واستغلالها لتسخير كل ما في الكون لصالح الإنسانية. وهذه غاية مشتركة لا تنفرد بها عقلانية دون أخرى. والثانية: هي غاية قصوى وهي المطلب الأسمى لها وتتمثل في تكوين عقيدة مرتكزة على هذه المعرفة،

(1) أنظر المصدر نفسه، ص91.

أي أن هذه المعرفة الصحيحة عن عالم الطبيعة والحياة لا ينبغي أن تكون هي الغاية القصوى للعقل الإنساني إنما هي الوساطة التي تبعث في نفس الناظر المتأمل الشعور بمن تعد هذه الطبيعة وهذه الحياة آية عليه.

ولقد نقل لنا الأستاذ العقاد[1]، في هذا الباب، حادثة ملفتة حقا للنظر ذلك أنه يروى عن «نابليون بونابرت» (Napoleon B.) أنه سأل العالم الفلكي الفرنسي المشهور «لابلاس» (La Place P.S) (1749-1827): أين تجد مكان العناية الإلهية في نظام السموات؟ فأجابه «لابلاس»: لست أدري مكانا لما يسمى العناية الإلهية في ذلك النظام يا صاحب الجلالة...

والذي يريد قوله هذا العالم الفلكي بهذا الجواب أنه يستطيع أن يفسر دوران الأفلاك بقوانين الحركة وخصائص المادة الطبيعية وليس عنده حاجة إلى تفسير آخر غير هذا.

ولعل جواب «لابلاس» ابتداء كان في إطار الأسباب القريبة للظاهرة أملاه عليه نظام الفلك الذي هو عنده مشاهدات معتادة متكررة وليس بالمستلزمات العقلية. وما كان من عالم المشاهدة لا يلفت بداهة النظر إلا إذا كان مثيراً للعجب.. ورغم ما ينطوي عليه هذا النظام الفلكي من عجب فإن حكم العادة (المشاهدة المتكررة) جعل إثارة العجب لا تتأتى إلا من نظر أي بعد تفكر واستدلال لا من بداهة المشاهدة المعتادة. ثم إن هذه المشاهدات التي هي ليست بمستلزمات ولا بديهيات عقلية – لأنه إذا كان للعقل أن يستلزم أن الأصغر والأكبر من الأشياء لا يتساويان، فإنه ليس له أن يستلزم أن تأتي الحركة من

(1) انظر: عباس محمود العقاد، التفكير فريضة إسلامية، مكتبة رحاب، الجزائر، بدون تاريخ، ص83 وما بعدها.

الحرارة... – فإن كل ما يحدث على صورة منها ولا يحدث على صورة أخرى فهو محتاج إلى التفسير غير مستغن بنفسه عن الفهم والتعليل...

ومن هنا لاحظ العقاد أننا نضحك من الطفل الذي نسأله: لماذا – مثلاً – انكسر الإناء؟ فيجيب: لأنه وقع. ونسأله: لماذا ينكسر إذا وقع؟ فيرد هكذا. ولا يكلف عقله سؤالا بعد هذا الجواب.

وعلى هذه «الصورة» كان جواب «لابلاس» في محصوله لسؤال «نابليون»: لماذا يدور هذا الفلك هذا الدوران؟ لأنه يدور هذا الدوران ولابد أن يدور هذا الدوران وذلك لأني رأيته يدور هذا الدوران.

والأستاذ العقاد، وهو يعقِّب على هذا الكلام، يكشف لنا عن الفرق القائم بين العقلانية العلمية الإسلامية وبين عقلانية «لابلاس» ففي الوقت الذي تقف عقلانية «لابلاس» عند حدود النظرة المماثلة لنظرة الطفل، فإن عقلانية المسلم العلمية تستوعب الظاهرة لكنها تتجاوزها إلى من تعد هذه الظاهرة العجيبة آية عليه أو قل بلغة السببية ينتقل من الأسباب إلى مسبب الأسباب، ولهذا يلاحظ العقاد أن من تكون إجابته شبيهة بإجابة الطفل فهو هازل يستخف بالأعجوبة التي أمام عينيه لمجرد كونها أمام عينيه كأنه يريد أن تكون الأعجوبة مما لا يراه ولا يراه إنسان.. بينما نجد أجهل الجهلاء يتعلم من القرآن الكريم فهما أعمق من فهم «لابلاس»، فإنه يتعلم من أن المعجزة قائمة حواليه حيثما جال بعينيه ويؤمن أن كل ما خلق الله في هذا الكون معجزات وآيات لذوي العقول، لكنها المعجزات التي يعمل العقل لفهمها وليست هي المعجزات التي تبطل عمل العقول.

وهذه الآيات المعجزات المبثوثة في كل أنحاء الكون والمثيرة للعجب كثيراً ما يلفت القرآن العقل البشري إلى النظر والتأمل فيها لا لذات النظر والتأمل بل لأنها تدل على عظمة وقدرة من هو وراء هذا الخلق العجيب، فتبارك الله أحسن

الخالقين، ولهذا نجد رسول الله ﷺ يقول حول قوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآياتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ**﴾[1]: «ويل لمن لاكها بين فكيه ولن يتدبر معناها»[2]. أو حول قوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ** [إلى قوله تعالى] **لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾[3] كما ذكر ذلك الزمخشري (ولد 467هـ) في تفسيره «الكشاف»[4] قوله ﷺ: «ويل لمن قرأ هذه الآية فمج بها» أي لم يتفكّر فيها و لم يعتبر بها.

وجاء في ذكر أسباب نزول هذه الآية عن ابن عبّاس قال: أتت قريش اليهود، فقالوا: ما جاءكم به موسى من الآيات؟ قالوا: عصاه، ويده بيضاء للناظرين، وأتوا النصارى فقالوا: كيف كان عيسى فيكم؟ فقالوا: يبرئ الأكمه والأبرص، ويحي الموتى، فأتوا ﷺ، فقالوا: ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهبا فأنزل الله: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآياتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ**﴾[5].

وفي هذا دعوة صريحة إلى السمو بالنظر إلى ما وراء الاكتشافات العلمية العجيبة وعدم الاقتصار على تفسير الظاهرة بإرجاعها إلى مجرد مسبباتها الحسية القريبة بل علينا أن نرتفع بالنظر إلى مسبب الأسباب، وأن المعجزة المتكررة التي

---

(1) القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية 190.

(2) نقلاً عن: محمد الصالح، قيمة العقل في الإسلام، تقديم الشيخ يوسف البدري، مكتبة الزهراء، القاهرة، بدون تاريخ، ص53.

(3) القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية 164.

(4) الزمخشري، الكشاف، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ، ص326.

(5) أبو الحسن النيسابوري، أسباب النزول، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1402هـ – 1982م، ص 79، 80.

تتم وفق الأسباب المتكررة لا تقل من حيث الدلالة أو الاعتبار، لمن نظر وتمعن فيها، عن المعجزة الخارقة لما اعتاد عليه الناس: فالمعجزة معجزتان: معجزة موجهة للعقل يستوعبها ويقتنع بها لتحرك فيه الشعور إلى من تعدّ هذه المعجزة المتكررة آية حسية عليه، وهي مبثوثة في كل مكان. ومعجزة موجهة للذين عطّلوا عقولهم أو ترددوا أو كابروا، وهي من غير ما اعتاد عليه الناس من سريان منتظم لقوانين الطبيعة، لتبهتهم فينتبهوا أو يزدادوا ضلالاً.. ولا شطط إن قلنا إن المعجزة الأولى هي التي يطالب بها القرآن العقل الإنساني من غير أن يلغي الثانية التي تفعل فعلتها في الكل وبدرجات متفاوتة، وبذلك يؤسس القرآن لما نسميه بالعقلانية العلمية الإسلامية، ومن هنا قال العقاد: «والإسلام... دين العقل... والتفكير فريضة فيه»[1].

وقد وقف ابن خلدون (732 – 808هـ) عند نقطة مميّزة فرّق بها بين المتكلم (المسلم) والفيلسوف (المشائي) تمثلت في الغرض من النظر في الكائنات. فالفيلسوف: «نظره فيها مخالف لنظر المتكلم، وهو ينظر في الجسم من حيث يتحرك ويسكن، والمتكلم ينظر فيه من حيث يدل على الفاعل. وكذا نظر الفيلسوف في الإلهيات إنما هو نظر في الوجود المطلق وما يقتضيه لذاته، ونظر المتكلم في الوجود من حيث إنه يدل على الموجد»[2].

فماذا لو تجتمع النظرتان لتضاف إلى نظرة العالم التجريبي الذي يكشف في مخبره دقائق المعجزات الكونية فيسوق النظريات والقوانين فتزيده نتائجه أكثر إدراكاً وتقرباً من الفاعل الذي خلق الكون فقدّره في سنن لا تتبدل، فأحسن تقديره.

---

(1) العقاد (عباس محمود)، التفكير فريضة إسلامية، ص85.

(2) ابن خلدون (عبد الرحمن)، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، ط2، بيروت، 1979، ص836.

فالمتكلم إذا قصّر إدراكه على أن الدين هو مجموعة من العقائد وأرجعه إلى نسق من المعاني المنطقية فهو لم يحفل بإدراك الحقيقة إذا كانت لا تقبل التصور ومن ثم غاب عنه أنه في ميدان المعرفة العلمية أو الدينية لا يمكن للفكر أن يستقل تمام الاستقلال عن الواقع المتحقق في عالم التجربة. وكذا عالم التجربة ليس عليه أن يقتصر اللزوم العقلي على عالم الحس دون أن ينقله إلى ما وراء هذا العالم الحسي إذ عالم الحس دلالة شاهدة على عالم الغيب.

ولا يخلوا من المفكرين والفلاسفة من يحدثنا عن قصور العقل الإنساني، من أولئك نجد في الفكر الغربي الفيلسوف الألماني «كنط» E. KANT (1724-1804) مثلا الذي من جملة ما ألف كتابا سماه «نقد العقل الخالص» وفيه يكشف عن دور العقل وحدوده المعرفية[1] ويقضي بذلك على المذهب العقلي التقليدي الذي كان سائدا قبله. ومن المفكرين المسلمين نذكر الفيلسوف أبا حامد الغزالي (450 – 505هـ) الذي من خلال تشككه الفلسفي نجده يصل إلى النتيجة نفسها وهي محدودية العقل وقصوره[2]: «غير أن هناك فارقاً هاماً بين الغزالي و(كنط)، فإن (كنط) تمشى مع مبادئه تمشياً لم يستطع أن يثبت أن معرفة الله ممكنة. أما الغزالي فعندما خاب رجاؤه في الفكر التحليلي ولىّ وجهه شطر الرياضة الصوفية، وألفى فيها مكانا للدين قائما بنفسه. وبهذه الطريقة وفق لأن جعل للدين حق الوجود مستقلا عن العلم وعن الفلسفة الميتافيزيقية»[3].

---

(1) Voir: Kant. E, Critique de la raison pure, PUF, Paris, 1979, p.258, 269, 271.

(2) أنظر: الغزالي (أبو حامد)، المنقذ من الضلال، حققه وعلّق عليه عبد الكريم المراق، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 92.

(3) محمد إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص11.

ولعل ما تجدر الإشارة إليه هنا هو تلك الملاحظة القيّمة التي لفت نظرنا إليها الفيلسوف محمد إقبال[1] (1873-1938) وهي أن أبا حامد الغزالي باكتشافه لطريقة الوعي الصوفي الموصلة للانهائي واقتناعه بتناهي العقل وعجزه عن الوصول إلى أحكام جازمة، دفعه لأن يضع حداً فاصلاً بين الفكر والبداهة وفاته أنهما متصلان اتصالاً أساسياً وأن العقل لابد أن يظهر لنا في صورة من التناهي والعجز وذلك لاتحاده بالزمان المتجدد؛ ومن ثم فالرأي القائل بأن تناهي العقل يحجبه عن إدراك غير المتناهي رأي ينهض على تصور خاطئ لحركة العقل في تحصيل المعرفة. والواقع أن الشك في العقل إنما مردّه إلى قصور الفهم المنطقي الذي يواجه كثرة من الجزئيات المتنافرة فيما بينها والتي يصعب ردّها جميعا إلى وحدة واحدة والحق أن الفهم المنطقي يعجز عن تصور هذه الكثرة عالما واحدا متماسكا، فنجده يلجا إلى التعميم الوهمي القائم على وجوه التشابه.

لكن الفكر قادر على أن يصل في حركته العميقة إلى لانهائي سار فيها، والتصورات المتناهية المختلفة ليست إلا لحظات في حركة تجليه. فالفكر متحرك فعّال يتكشّف إذ يحين الوقت عما فيه من لانهائية، مثله مثل الحبة تحمل في ثناياها من أول الأمر وحدة الشجرة الكاملة على أنها حقيقة ماثلة.

من هنا يلاحظ محمد إقبال أن الفكر هو «الكل» في حركة تكشفه عما في ثناياه. فهو يبدو للناظر إليه من زاوية الحدوث كسلسلة من معيّنات موجودة في الكل الأكبر، هذا الكل الأكبر – باستعمال المجاز القرآني – هو نوع من «اللوح المحفوظ» يشتمل على جميع إمكانات المعرفة التي تتعيّن بعد، تخرج إلى الوجود في سلسلة من التصورات المتناهية تبدو في الزمان المتجدد أنها واصلة إلى وحدة ماثلة فيها بالفعل.

(1) أنظر، المصدر نفسه، ص11 وما بعدها.

وفي أعقاب هذه الأفكار يصل بنا الفيلسوف إقبال إلى خلاصة مركزة، يقول فيها: «والواقع هو أن حضور اللانهائي الكلي في حركة الفكر هو الذي يجعل التفكير النهائي ممكنا، ولكن (كنط) والغزالي، على سواء فاتهما أن يدركا أن الفكر في حركة إدراك المعرفة يتخطى حدود تناهيه. والمتناهيات الطبيعية متنافرة فيما بينها، وليست المتناهيات الفكرية كذلك»[1].

وعند ذاك يمكن القول إن الإسلام إذا كان يقر بإمكان السمو بالحياة العقلية ليس عن طريق قوى عالم أجنبي عن نفس الإنسان وإنما يتجلى عالم جديد في داخل النفس ذاتها، فإنه يكمّل هذه النظرة بنظرة أخرى ويقرّ أن النور الذي يضيء هذا العالم الجديد المتجلي على هذا النحو ليس غريبا عن عالم المادة، بل هو متغلغل في أعماقه.

وإذا ثبت هذا قلنا إن العقلانية العلمية الإسلامية هي طريق تبدأ بالمتناهيات الطبيعية أي الموجودات المحدودة في عالم المادة التي هي متنافرة فيما بينها لتأخذ شكل المتناهيات الفكرية التي ليست هي كذلك، وعندما ينشغل الفكر بالعالم الفسيح فإنه يحطم حدود تناهيه تدريجيا ويستمتع باللانهائي الموجود فيه بالقوة، أي أن حركة الفكر ممكنة بسبب حضور اللانهائي حضورا ضمنيا في ذاته المتناهية – كما أسلفنا القول – ومن هنا كان: «الهدف الرئيسي للقرآن هو أن يوقظ في نفس الإنسان شعورا أسمى بما بينه وبين الخالق وبين الكون من علاقات متعددة»[2].

وكثيراً ما وجه القرآن العقل إلى التأمل أولا ثم خاطب العقل المتأمل بأن «الخلق» لم يكن عبثا وأن كل شيء كان بقدر لا تفاوت فيه. فما من شيء يحدث إلا وهو في نظام محكم موجه نحو غايات عليا. ومن ثم يشعر العقل

(1) المصدر نفسه، ص13.

(2) المصدر نفسه، ص15.

العلمي، الذي خوّل البحث والكشف، أن الحياة المادية ذاتها، فضلاً عن الحياة الروحية، موجهة نحو غاية معلومة، وأن ما يطبعها من تكامل بين ظواهرها فهو عائد إلى الفاعل الذي أبدعها والحكمة التي حددت سيرها وذلك بأن وضع فيها سنناً كونية ثابتة لا تتبدل وهو ما أطلق عليه العلم الحديث اسم «الحتمية الطبيعية»: «إن المعرفة أو العلم الطبيعي ليس غاية يقف عندها العقل، لأن العقل الذي يكتفي بأن يعرف كيف تتعاقب الظواهر وتتغيّر وتتوالد الأجناس وتتفاعل العناصر، وتتحول المادة، ساعيا إلى استغلال ذلك في حياته المادية عقل ناكص عن المضي في طريق الهداية إلى ما وراء الظواهر ذاتها»[1].

وإذا كان العلم بجميع أنواعه يكتسي هذه الخاصة وهي أنه ليس علما لذاته وإنما هو لغايتين: الأولى تقف عند تسخير الطبيعة قصد جلب المنافع ودرء المفاسد. والثانية تتجاوز الأولى لكي تقف على «الحق» الذي هو وراء هذا التسخير الحقيقي، فهو خالق الكون وسننه الثابتة، وهو خالق العقل في الإنسان الذي يكشف ويعتبر.

ولما كان القرآن ذاته يدعو ويحث على مثل هذه العلوم للمنفعة والاعتبار صار المجيب للدعوة والباحث في مجال العلم متعبدا، بل تعبده أشد من تعبد العابد المقتصر على آداء الفرائض والشعائر...: «فالعلم في الإسلام يتناول كل موجود، وكل ما يوجد فمن الواجب أن يعلم، فهو علم أعم من العلم الذي يراد لأداء الفرائض والشعائر، لأنه عبادة أعم من عبادة الصلاة والصيام، إذ كان خير عبادة لله أن يهتدي الإنسان إلى سر الله في خلقه وأن يعرف حقائق الوجود في نفسه

(1) الكتاني (محمد)، جدل العقل والنقل في مناهج التفكير الإسلامي في الفكر القديم، ص387.

ومن حوله...»[1]. ومن هنا نفهم القصد من قوله تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾[2] وقوله تعالى: ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾[3]. ألا ترى أن الدرجات هي تحصيل الخشية (الإيمان) والخشية تحصيل العلم فصار الكل تحصيلا للعلم ومن هنا قال تعالى أيضاً: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء**﴾[4]. وإذا كان العلم موجباً للخشية فهو موجب أيضاً لأن يقدّر الإنسان الله حق قدره فكان بذلك خير عباده.

ومما جاء عن الرسول ﷺ في فضل هذه العبادة قوله: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم...»[5] وقوله ﷺ: «.. وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب وإن العلماء ورثة الأنبياء...»[6].

وهذا بالإضافة إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة الكثيرة التي وردت في فضل المعرفة والحكمة وفريضة العلم على كل مسلم ومسلمة.

وهكذا يتبيّن بكل جلاء ومما لا يدع مجالاً للشك أن العلم لدى العقل المسلم صار ليس مطلوبا للمنفعة فحسب بل هو فريضة إسلامية وعبادة من أفضل العبادات التي يتقرب بها العبد من ربه ويعرفه بها حق المعرفة.

---

(1) العقاد (عباس محمود)، التفكير فريضة إسلامية، ص61.

(2) القرآن الكريم، سورة الزمر، الآية 9.

(3) القرآن الكريم، سورة المجادلة، الآية 11.

(4) القرآن الكريم، سورة فاطر، الآية 28.

(5) الحديث رواه الترمذي وقال حديث حسن، وذكره الإمام النووي، رياض الصالحين، دار مكتبة الحياة، بيروت، بدون تاريخ، ص451، رقم الحديث: 1388.

(6) الحديث رواه أبو داود والترمذي في مسنديهما، وذكره أيضا الإمام النووي، المصدر السابق، ص452، رقم الحديث 1389.

غير أن هذه الحقيقة قد تجعل المرء يتساءل: إذا كان هذا هو موقف الإسلام والعقل المسلم من العلم، فلماذا تأخر معظم المسلمين اليوم؟ وهذا يجرنا إلى أن نسأل سؤالا آخر وهو: إذا لم يتقدم الإنسان المسلم بالأمس ويقم حضارته التي سطعت على الغرب إلا بهذا الدين ومحفزاته، فهل يعقل أن يكون سببا في تخلفه اليوم ما كان سببا في تقدمه بالأمس؟.

الواقع أنه إذا كان عالمنا الإسلامي اليوم يعيش التخلف المتفاوت بين أقطاره فهو ليس مما يصح أن ينسب إلى الإسلام ولا إلى العقل المسلم الأصيل. وقد ألف الإمام محمد عبده كتاباً[1] يكشف فيه عن دعوة الإسلام إلى العلم وتسامحه مع العلماء مهما كانت عقيدتهم في مقابل عداء المسيحية للعلم والعلماء. وإذا كان محمد عبده قد برّأ الإسلام وسلفه من الملام، وقدّم على ذلك أدلة وشواهد من الكتاب والواقع التاريخي المعيش للمسلمين الأوائل، فإنه لم يفعل مع المسلمين المتأخرين الذين تخبطوا ويتخبطون في التخلف فكشف لهم داءهم الذي ردّه في معظمه إلى السياسة غير الرشيدة ودلهم على طريقة العلاج التي هي من صميم الإسلام فذكر ما ذكر، من ذلك قوله: «وأما ما وصفت بعد ذلك من الجمود فهو مما لا يصح أن ينسب إلى الإسلام، وقد رأيت صورة الإسلام في صفائها ونصوع بياضها، ليس فيها ما يصح أن يكون أصلا يرجع إليه شيء مما ذكرت [أي مما جنته السياسة السيئة على الإسلام](...) وإنما هي علّة عرضت للمسلمين عندما دخل على قلوبهم عقائد أخرى ساكنت عقيدة الإسلام في أفئدتهم، وكان

(1) عنوان الكتاب: «الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية» وهو بمثابة رد على أحد كتاب المسيحية الذي قال: «إن المسيحية كانت أكثر تسامحا مع العلم من الإسلام، وأن الإسلام أكثر اضطهادا للعلم والفلسفة من النصرانية». وقد نشر هذا في «مجلة الجامعة». أنظر: مقدمة رشيد رضا للكتاب، ص 7.

السبب في تمكنها من نفوسهم وإطفائها لنور الإسلام من عقولهم هو السياسة، كذلك هو تلك الشجرة الملعونة في القرآن: عبادة الهوى واتباع خطوات الشياطين– هو السياسة»[1].

وقد بيّن الإمام عبده كيف خبّت السياسة العمياء على الإسلام وعلمائه. وقد ضرب لنا مثلا لذلك بالخليفة العباسي المعتصم الذي مكن الترك من سلب الأمة[2] فكان أن: «نظروا إلى ما كانوا عليه من فخفخة الوثنية (...) فاستعاروا من ذلك للإسلام ماهو براء منه (...) والغوغاء عون الغاشم وهم يد الظالم (...) وسنوا لنا من عبادة الأولياء والعلماء والمتشبهين بهم ما فوق الجماعة، وأركس الناس في الضلالة، وقرروا أن المتأخر ليس له أن يقول بغير ما يقول المتقدم، وجعلوا ذلك عقيدة حتى يقف الفكر وتجمد العقول (...) وأن ما يظهر من فساد الأعمال واختلال الأحوال ليس من صنع الحكام، وإنما هو تحقيق لما ورد من الأخبار من أحوال آخر الزمان...»[3] وهذه هي السياسة التي قصد والتي جنت على الإسلام ما جنت. فانتقل المسلم الذي كانت ضالته الحكمة، والعلم عبادته الأسمى إلى رجل هو بالدراويش ألسق، فانتشرت في أوساط المسلمين الخرافات بدل الحقائق والجهل بدل العلم..: «والعامل الأقوى في حمل النفوس على قبول هذه الخرافات إنما هو السذاجة، وضعف البصيرة في الدين، وموافقة الهوى – أمور إذا اجتمعت أهلكت (...) فكل ما يعاب الآن على المسلمين ليس من الإسلام، وإنما هو شيء آخر سموه إسلاما (...) [وهو] علّة لابد أن تزول»[4].

---

(1) محمد عبده، الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، ص 87، 88.

(2) لأنه ظن أن الجيش العربي قد يكون عونا لخليفة علوي، لأن العلويين كانوا ألصق ببيت النبي ﷺ.

(3) محمد عبده، الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، ص88، وما بعدها.

(4) المصدر نفسه، ص90 ،91.

حقاً، لقد مرت وتمر، كما يثبته التاريخ، بالأمة الإسلامية حقب وعصور متباينة جهلت فيها الإسلام نفسه فجهلت فضل العلم كما جهلت فضل الدين الذي كان المحفز للعلماء عند السلف، العلماء الذين دفع بهم الدين إلى أن يوجبوا على المسلم أن يتعلم حيث وجد العلم، ومن ثمة فموقف الإسلام والعقل المسلم الأصيل من العلوم كافة والواقعي منها خاصة لا يحتاج إلى بيان لمن تتبع آي القرآن وأحاديث الرسول ﷺ. فالتفكير الواقعي اليوم هو: «ذلك التفكير الذي زكّاه الإسلام نفسه، في المراحل الأولى من تاريخه الثقافي على الأقل»[1]. والفرق بين التفكيرين: الغربي[2] والإسلامي كامن في الوقوف عند نتائج العلم أو تجاوزها إلى من تعد هذه النتائج دليلاً على وجوده الكامل لأن: «عناية القرآن بالطبيعة ليست شيئا أكثر من الاعتراف بأن الإنسان يمت بصلة إلى الطبيعة – لا لمجرد رغبة جامحة في التحكم – وإنما لغرض أنبل يؤدي إلى تحرر حركة الحياة الروحية في رقيها وتساميها».

ومن هنا حق على العقل المسلم أن يعلم أن التفكير بجميع أنواعه يوجب الإسلام وأن الإسلام يوجب التفكير بجميع أنواعه: «لقد تعلمت الطبيعيات القديمة نقد أسسها التي قامت عليها أولا، فأدى هذا النقد إلى سرعة اختفاء المادية التي قالت الطبيعيات بوجودها أول الأمر. وليس ببعيد ذلك اليوم الذي يكشف فيه كل من الدين والعلم اتفاقا متبادلا بينهما لم يكن حتى اليوم منتظراً».

تلكم هي العلاقة التي ينبغي أن تكون بين عقل المسلم والعلوم، فالعقلانية العلمية التي يؤسس لها الإسلام تنظر إلى العلم ليس كأداة تسخر بها الطبيعة لخدمة الإنسان وحسب بل وكأداة تجعل الروح تسمو وترقى حيث الملكوت الأعلى...

---

(1) محمد إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص1.

(2) ليست كل العقلانيات الغربية كذلك من ذلك العقلانية الديكارتية وعقلانية ليبينتز.

وإذا استعاد المسلمون اليوم هذه الحقيقة أدركوا أن الإسلام لم ولن يكون في عداء مع العلم بل: «ستكون المدنية من أقوى أنصاره متى عرفته وعرفها أهله، وهذا الجمود سيزول، وأقوى دليل لك على زواله، بقاء الكتاب شاهدا عليه بسوء حاله، ولطف الله بتقييض أناس للكتاب ينصرونه ويدعون إليه ويؤيدونه، والحوادث تساعدهم، وسوط عذاب الله النازل بالجامدين ينصرهم (...) هذا الكتاب (...) العلم يتبعه وهو خليله الذي لا يأنس إلا إليه، ولا يعتمد إلا عليه».